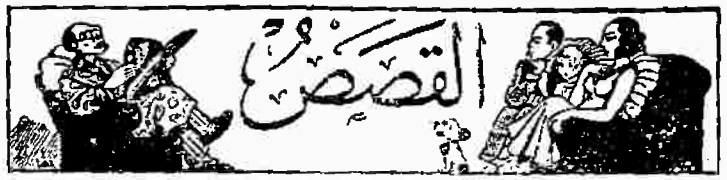

البعث

للأستاذ محمد سعيد العريان

جلس « أحمد » على مقعد فى جانب من غرفته الخاصة وارتفق بذراعه على النضد الصغير أمامه وراح يفكر ...

إن بعض الصور التى تتناولها العين فى نظرة عابرة قد يكون لها من التأثير فى حياة بعض الناس ما لا تؤثر الأحداث العظيمة التى تهز العالم . هذا أحمد ، شتان بين ما هو الساعة وما كان منذ ساعات . لقد عاد لتوه من السينما حيث كان يشهد رواية عن حياة الأديب الفرنسى الكبير « إميل زولا » ... فأين هو الساعة مما كان قبل ساعات ؟

لقد رأى وسمع وعرف ، ونظر إلى نفسه ، وحضرته ذكرياته وأمانيه ، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء ، واستغرق فى تفكيره ...

منذ بضع عشرة سنة لم يألُ أحمد دأباً إلى غاية يستشرف إليها ؛ فأين بلغ مما أراد؟ هذه حياته التى يحياها منذ كان، لم يتغير منها شىء يشعره شيئاً من الأمل فيما يستقبل من أيامه ؛ ففيمَ كان جهاده ودأبه وما بذل من أعصابه ومن دمه فى بضع عشرة سنة ؟

أتراه يستطيع أن يقنع نفسه بأنه قد بلغ شيئاً ؛ فأين ... ؟

وتراءت له صورة « سعدية » الفتاة التى وهب لها نفسه ووقف عليها أمانيه ، وتذكر شيئاً من ماضيه القريب ومن ماضيها

لقد تعارفا منذ سنوات ، بل لقد عرفته هى قبل أن يعرفها ، فسعتْ إليه ، فالتقيا ، فما افترقا بعدها إلا على ميعاد ؛ ولكن سعدية اليوم غير ما كانت ، لأنه هو هو لم يتغير ولم يزد شيئاً على ما كان يوم عرفته !

أيكون ذلك هو السبب الحق لما بينهما اليومَ من الجفاء والمباعدة ؟ ذلك ما خُيِّل إليه هو حين افترقا لآخر مرة منذ قريب فهجرها وإن فى قلبه من الشوق إليها لهيباً يسعر !

* * *

لقد كان « أحمد » أديباً موهوباً . إنه ليعرف ذلك من نفسه، وإنه ليؤمن به إيماناً لا سبيل إلى الشك فيه ؛ وكان حقيقاً بهذا الإيمان أن يبلغ به المنزلة التى يهدف إليها منذ بدأ ليتخذ مكانه بين أدباء الجيل . وكان على إرث من الأدب هيأ له الجو الذى يعينه على استكمال وسائل الأديب وتحصيل مادته ؛ واتخذ طريقه إلى الغاية التى يؤمل ...

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة ، ولم يألُ رأياً من يومئذ ؛ وعرفته سعدية مما قرأتْ له ، وكانت رسالتها إليه أولَ الصدى الراجع ، وكانت هى أولَ من عرف من قرائه ؛ وتوثقتْ بينهما الصلة ، وكانت فى أولها إعجاباً بالعقل الجميل فعادتْ أملاً يأمله وحلماً يتراءى لها ... ومضى الفتى إلى غايته والحياة تُجِدُّ له فى كل يوم أملاً وتوقظ عاطفة !

وكتب وخطب ، ونظم وألف ، وراح يناضل فى جهد الجبابرة ليشق طريقه إلى المنزلة التى يتنورها من بعيد ؛ وقالت له فتاته : « متى أراك يا حبيبى هناك ؟ » ولم يجبها فتاها ، لأن عينيه كانتا تنظران إلى هناك !

ومشيا ذراعاً إلى ذراع بين الحدائق الضاحكة صامتين ، أما هى فكانت تبحث بعينيها بين الفروع الراقصة عن زهرة نضرة تقطفها عن أملودها لتجعلها فى صدرها زينةً تتيه بها على لداتها وسواحبها ، وأما هو فكان فى إطراقه وصمته يتسمع نجوى الغصون وهمس الزهر لينظم منهما قصيدة ترفّ رفيفَ الغصن وتنفح نفحَ الزهر ! وطال عليها الطريقُ وما بلتْ ، فقالت : متى يا حبيبى ... ؟ وقال ... ولم تَعِ ما قال ولم يَعِ ما قالت ؛ وتدابرا ومضى كلٌّ منهما لغايته ، وراحت تبحث عن الزهر وراح يبحث عن معناه ... وكان فراقَ بينهما !

* * *

وعاد إلى داره فى المساء وما فى الدار غير خادمته العجوز ، وجلس إلى المائدة ينتظر عشاءه ، وأبطأت الخادم لأن الدار لم يكن فيها عشاء فتأتى به ... وضحك حين عرف ، وعبّث فى جيبه قليلاً ثم أمسك ، وآثر أن يطوى ليلته بلا عشاء ؛ فإن ذلك أخلق أن يجمع له نفسه ويوقظ حسّه !

وجلس إلى مكتبه لحظات يقرأ بريد المساء ؛ وكان بينه رسالةٌ تنفح عطراً ، وقرأ ...

« سيدى ...

« ... وإنى أرسل إليك تحياتى على البعد ...

« إنها لحظاتٌ سعيدة حين أقرأ لك فأشعر أنى منك على مقربة وأنك منى ...

« وإنه ليخيّل إلىّ أحياناً أننى وأنك ...

« إنك لست بعيداً منى؛ أفتُراك تعرفنى؟ ولكنى أعرفك، و ... وأحبك !

« ومعذرة ... ! »

وابتسم الفتى ثم عبس ، وذكر سعدية ... ثم طوى الرسالة وأودعها غلافها ؛ وقال وكأنما يتحدث إلى شخص يجالسه : ليتك تعرفين يا فتاة وليتنى أعرف ! بل إننى لا أريد أن تعرفى ! إنك تنشدين الزهر ليكون لك زينة تباهين بها فى المحافل ، وإننى أنشد معناه لأتخذه وحياً أتصل بأسبابه إلى السماء ... كذلك كانت أختٌ لك من قبل !

* * *

ولكنه كان راضياً ...

لم يبلغ المجدَ الأدبى الذى يناضل له منذ بضعَ عشرة سنة ، ولم يبلغ الغنى ، الغنى الذى يكفيه حاجةَ الحىّ إلى وسائل الحياة ؛ ولكنه كان راضياً ، لأنه كان مؤمناً بنفسه ، ومؤمناً بغده ! ومضى على وجهه ...

... وراح إلى السينما عشيةً يتزوّد لفنه وأدبه ويستجمّ ، ثم عاد ...

لقد رأى وسمع وعرف ، ونظر إلى نفسه ، وحضرته ذكرياته وأمانيه ، وراح يحاسب نفسه على ما أدى من عمل وما نال من جزاء ، واستغرق فى تفكيره ...

وكان عليه أن يعدّ الخطبة التى طُلب إليه أن يذيعها بعد أيام، احتفالاً بذكرى الأديب الراحل فلان ؛ ذلك واجب لا يعفيه من إغفاله أن يعتذر ؛ فإنه لصديقه ، وإن له عليه ديناً يقتضيه الوفاء أن يذكره به فيتحدث عنه حديثاً فى يوم ذكراه !

وشرع قلمه ، وهم أن يعد الخطبة التى ينبغى أن يذيعها عن صديقه الأديب الراحل فى يوم ذكراه . واستجمع فكره ، وتذكر شيئاً ...

ياعجبا ! ذلك الصديق الذى يهم أن يتحدث عنه ، ماذا كان فى حياته ، وماذا هو اليوم عند الناس ؟ لقد عاش حياته يجاهد لأمته ما يجاهد صابراً محتسباً قانعاً بالكفاف ، لا يذكره أحدٌ بحق ولا يعرف له يداً ... فلما غاله الموت — لما غاله الموت فقيراً معدماً بعيد الدار كثير الولد — تدانت الرءوس ، واختلجت الشفاه ، وسحّت العبرات ، وصاح الصائح فى الأمة يدعوها لتخليد ذكراه، فإن حديثه اليومَ على كل لسان، وإن ذكره فى كل قلب ... كذلك كان حياً وميتاً ، فما متاعه بما صار وما عزاؤه عما كان ؟

ماذا ؟ ... أليس يعرف الناس للأديب حقه إلا أن يموت ؟ ما أغلاه ثمناً للمجد !

وابتسم الفتى ساخراً ، ثم سكت ، وعاد إلى نفسه يؤامرها ... وانصرفت نفسه عما هو فيه ؛ وتناول حزمةً من الرسائل لم يقرأها بعد ، وفض منها رسالة ، وقرأ :

« سيدى ...

« ... فلماذا؟ ولماذا لا نجد فى الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء أوربا ؟ »

وطوى أحد الرسالة وهو يتمتم : نعم ، لماذا ... ؟ لا لا ، إننى أكاد أعرف ... ولكن ، لماذا ... لماذا لا يزال — مع ذلك — فى ناشئتنا الغافلة من يرجو الخلود فى الأدب ويلتمس به المجد والغنى ؟ هذا هو السؤال الذى يحق !

وتذكر الرواية التى شاهدها فى السينما منذ ساعات ، وتذكر صديقه الذى يهم أن يعدّ حديثاً عنه ليوم ذكراه ... وصمت

برهة ، ثم وقف ، وراح إلى المصباح فأطفأه ، وقصد إلى فراشه ، ولكنه لم ينم ... واستغرق فى تفكير عميق ... وأحس برد الراحة على قلبه حين انتهى من تفكيره إلى حد ...

* * *

... وأصبح أصدقاء أحمد يسألون عنه فلا يجدونه ، ومضت أيام ولا حسٌّ ولا خبر ، إلا رسالة موجزة تلقاها بعض صحبه ، وليس فيها إلا هذه الكلمات :

« إننى ذاهب ... لقد برمت بدنياى ... وداعاً يا أصدقائى ! »

وجدّ أصدقاؤه فى الطلب فلم يقفوا له على أثر ، وظنوا الظنون ... ثم استيقنوا ، حين عثر بعض الرواد فى صحراء الجيزة على أشلاء آدمية تكاد تواريها الرمال فى قعر هوة سحيقة من هُوى الصحراء. لم يكن ثمة وجه يبين ، ولا لسان ينطق ، ولا أثر يدل ، إلا قميصاً خلقاً قد حال لونه وتمزقت حواشيه ، لقد أكل الوحشُ من ذلك الجسد ما أكل وأبلى الرمل ما بقى ، فما هو إلا عظام نخرة وأنابيب جوفاء وأديم ممزق !

وقال واحد من صحابته : لقد توقعت له هذه الخاتمة منذ بعيد ، ويا طالما حذرته من ارتياد الصحراء وحيداً فى غبشة الصبح وفى ظلمة الغسق فلم يسمع لى ؛ يزعم أنه يجد هنالك مهبط الوحى ومنبع العبقرية !

وقال الثانى : وكذلك زعمت لنفسى حين جاءتنى رسالته يودعنى ويستودعنى ؛ لم يقع فى نفسى إلا أنه ذاهب إلى الصحراء ؛ لقد تحدث إلىّ مرة ... وكان يتشوف إلى اليوم الذى يفارق فيه دنيا الناس إلى معتزَل هادئ على حدود الصحراء يأنس فيه إلى الوحش فلا يرى أحداً من الناس ولا يراه أحد ! فلعله ... !

وقال الثالث : يرحمه الله ! وانحدرت على خده دمعة فجاوبتها أخواتها من عيون أصحابه ؛ وعزى بعضهم بعضاً ؛ ثم انصرفوا يحملون رفات الشاعر الشهيد إلى مثواه ؛ وتداعى الناس إلى مأتمه محزونين وإن حديثه ليرطب كل لسان !

وكتب اسم أحمد فى سجلّ الراحلين من أدباء الأمة . . . وصاح الصائح فى الأمة يدعوها لتخليد ذكرى الأديب الراحل ، وطفحت أنهار الصحف الأدبية بالحديث عنه وتمجيد ذكراه !

وانعقدت جماعات ، وتألفت كتب ، وبذل مال ؛ وتزاحم الناشرون يزايدون بالمال لشراء مخلفاته الأدبية ... وجدّ البُعداء من أهله يطلبون نصيبهم فى تركته !

* * *

ومضى عام قبل أن يحدَّد يوم يقوم فيه الخطباء والشعراء لتأبينه ، وكان يوماً مشهوراً ...

كان المدرج الكبير غاصا بأهل الأدب ، وسروات المدينة ، وذوى الجاه والرياسة ؛ وقد نُصِّبَتْ فى صدره منصَّة عالية عليها كراسى مذهبة ، يشرف عليها صورة مكبرة للفقيد العزيز مجللة بالسواد ، تطل منها عينان ساخرتان على تلك الجموع الحاشدة ؛ وكان فى ركن من القاعة فتاة ذات جمال قد انتقبت بنقاب أسود شفيف مبتلّ بالدمع ، وإلى جانبها فتيات . تلك هى سعدية ؛ وجلس فى الصف الأخير بضعة فتيان شُعْث غُبْر قد تأبطوا كتباً وصحفاً ومجلاّت قديمة ، تدل ثيابهم وهيئتهم على الفقر والقناعة و ... والعبقرية ، وتنطق سماتُهم وشارات الحداد فى وجوههم بأنهم أكثر أهل الحفل إخلاصاً لذكرى صاحبهم الذى مات ...! أولئك أسرة الفقيد من أهل الأدب !

وكان على الباب بوابون من ذوى اليسار والنعمة ، يستقبلون القادمين ويدعون كلا منهم إلى مجلسه الذى يواتمه . وتدلّت الأنوار ثريات تكسف الشمس وتبهر النظر . وكانت حفلة ، لو أحصى ما أنفق فى إعدادها لكان حياةً من موت وغنى من مَتْرَبة !

وغصّ البهو والشرفات بالوافدين على الحفل من أهل الوفاء والأدب ؛ وحل الموعد ، وصَمَتَتْ القلوب وأرهفتْ الآذان !

ووقف الخطيبُ الأول يذكر تاريخ الفقيد ؛ وكان يلبس حلةً سوداء غالية ، وقد أحكم النظار على عينيه وتدلّت سلسلته الذهبية على كتفه ، وبَرَق الماس فى إصبعه ؛ وبدأ يخطب :

« أيها السادة ! »

وكان السادة منصتين فى لهفة وتأثر ...

وتتابع الخطباء والشعراء يذكرون ما يذكرون من فضل الفقيد وعبقريته وعلمه وخسارة الأمة بفقده

وقال قائل لصاحبه : « يرحمه الله ! »

فقال صاحبه : « أما إنها لخسارة ! »

وكان ثمة فتى رث الثياب ، مخرّق النعل ، مرسل اللحية ، يقتحم الصفوف صفًّا صفًّا يقصد إلى المنصة التي يتبارى عليها الخطباء ...

وتأفّف الناس وزمّوا شفاههم استكراهاً وغيظاً ، لكنهم صمتوا إجلالاً للحفل ، وبلغ الفتى حيث أراد وهمّ أن يصعد ، فاعترضته الأكفّ ؛ ولكنه صعد ...

وأخذته العيونُ من كل جانب ، وكان يبتسم وفي عينيه سخرية وشماتة !

وفرغ الخطيب من خطبته فتنحّى عن موقفه ، وتقدم الفتى إلى موضعه ، وهمّ أن يتكلم ...

وتدافعته الأيدي ... ونظر إليهم ونظروا إليه ... وتعارفت وجوه وتناكرت وجوه ؛ ووقف الفتى ثابتاً في مكانه ، وارتفع صوته يُبث جُلاجل نفسه ، وهتف :

« أيها السادة ... ! »

وسمعها السادة وقوفاً وأبصارهم إليه ، ومضى يقول :

« أشكركم ... ! »

وعرفه من عرف ولم ينكره من جهل ، وتدافعوا إليه ... إنه هو ... إنه أحمد !

«ذلك يوم البعث ولا ريب» : قالها كل مستمع لصاحبه ... لم يمت أحمد ، ولم تأكله وحوش الصحراء ، ولم يحمله من حملوا إلى قبره يوم حملوا الرفاتَ المجهول النسب من مجهل الصحراء إلى معلمها ؛ ولكنه كان حياً يرزق . كان يهيء نفسه ليلقى أبلغ خطبة جهر بها خطيب ، وأبيَن قصيدة نظمها شاعر ؛ وأبرع سخرية أبدعها أديب ؛ لخطب ونظم وسخر ... واستمع لرأى الناس فيه ميتاً حياً ، وأسمعهم رأيه . وبلغ المجد الذي أراد ، وبلغ ما شاء من الانتقام لنفسه ومن السخرية بالناس ! وعاش !

محمد سعيد العريان

إلى هواة المغناطيسية وإلى المصابين بالاضطراب العصبي

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تجرى عملية التحليل النفسي لنفسك وأنت في منزلك للتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسي والتأثير به عن قرب وعن بعد مسافات والحصول على دبلوم في هذا الفن اكتب إلى الأستاذ الفريد توما مدير معهد الشرق ٧١٩ شارع الخليج المصري بنمرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجانا برجوع البريد